الدكتور صالح أحمد العلي

شيخ المؤرخين الأكاديميين العراقيين

كلمة شكر

إلى

الأستاذ محمد سعيد طيب

عضو مجلس أمناء مركز دراسات الوحدة العربية

لتمويله إصدار خمس كرّاسات

من سلسلة «أوراق عربية»

١٣

أوراق عربية

مركز دراسات الوحدة العربية

سِيَرٌ وأعلام (٤)

الدكتور صالح أحمد العلي

شيخ المؤرخين الأكاديميين العراقيين

الدكتور ناصر عبد الرزاق الملا جاسم

الفهرسة أثناء النشر ـ إعداد مركز دراسات الوحدة العربية

جاسم، ناصر عبد الرزاق الملا

الدكتور صالح أحمد العلي: شيخ المؤرخين الأكاديميين العراقيين/ ناصر عبد الرزاق الملا جاسم.

٣٢ ص. ـ (أوراق عربية؛ ١٣. سِيَرٌ وأعلام؛ ٤)

ببليوغرافية: ٣٢.

ISBN 978-9953-82-464-2

١. العلي، صالح أحمد ـ تراجم. أ. العنوان. ب. السلسلة.

928.567

العنوان بالإنكليزية

Dr. Salih Ahmad al-Ali: Chief of Academic Iraqi Historians

Nasser Abdul Razzaq al-Mulla Jassem

«الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن اتجاهات يتبناها مركز دراسات الوحدة العربية»

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص. ب: ٦٠٠١ ـ ١١٣
الحمراء ـ بيروت ٢٤٠٧ ٢٠٣٤ ـ لبنان
تلفون: ٧٥٠٠٨٤ ـ ٧٥٠٠٨٥ ـ ٧٥٠٠٨٦ ـ ٧٥٠٠٨٧ (٩٦١١+)
برقياً: «مرعربي» ـ بيروت، فاكس: ٧٥٠٠٨٨ (٩٦١١+)
e-mail: info@caus.org.lb
Web Site: http://www.caus.org.lb

حقوق الطبع والنشر والتوزيع محفوظة للمركز

الطبعة الأولى
بيروت، تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١١

المحتويـات

مقدمة ٧

أولاً : الأصل والنشأة ٨

ثانياً : العلي وأكسفورد ١٣

ثالثاً : العلي وبغداد وكلية الآداب والعلوم ١٥

رابعاً : الانقلاب على المَلَكية ١٧

● بين العمادة والبحث والدراسات العليا ١٩

خامساً : انقلاب عام ١٩٦٨ ..... ٢٣

● العلي رئيساً للمجمع العلمي العراقي ٢٣

سادساً : العلي والتنظير لتاريخ عام للعرب ٢٧

سابعاً : الفصل الأخير ٢٩

المراجع ٣٢

مقدمة

درج البعض من المتطلعين صوب التخصصات العلمية، والساعين وراء الآفاق الجديدة للمعرفة على المجادلة في شأن جدوى الدراسات التاريخية؛ فلطالما أكدوا أننا في واقعنا العربي المعاصر، حيث تواجهنا أزمات التحديث ومواكبة العالم المتقدم، بأمسّ الحاجة إلى النظر إلى الأمام، والتركيز على عالم التقنية العلمية المتقدمة، بدلاً من اجترار الماضي وإضاعة الزمن في نبشه. وعندما تعرّض العراق للهزة العنيفة عام ٢٠٠٣، ارتفعت أصوات هؤلاء، محمِّلين التاريخ ودراسته مسؤولية ما جرى، وزاعمين أن الوقت حان لدفن الماضي والانطلاق صوب العلم والتقانة.

ولقد ترامى ذلك إلى سمع المؤرخ العراقي الكبير أ. د. صالح أحمد العلي في وقت كانت فيه الآلام الجسدية والنفسية تمزق أيامه الأخيرة؛ إذ كان جسده يتهرأ نتيجة حروق شديدة ألّمت به، وحروق أقسى طاولت روحه وهو يرى بغداد الحبيبة، التي أفنى حياته في التغنّي بأمجادها، تسحقها الدبابات الأمريكية.

كل ذلك لم يمنع هذا الشيخ الجليل من الانتفاض وإطلاق صرخة مدوية بكل عنفوان الشباب، رداً على هؤلاء، ومخاطباً الأجيال: من كان بلا أب ولا أُسرة أو كيان سيسرّه أن يكون بلا تاريخ.. التاريخ هو نحن كينونتا وشرعية وجودنا على هذه الأرض. وبدون التاريخ لا حق لنا في أرض أو أسرة أو نسب، ببساطة بلا تاريخ يعني بلا أصل، ولا أعلم ـ والقول له ـ إن كان هناك من يسرّه أن يكون بلا أصل.

هذه العبارات النافذة تعبّر دونما شك عن دفاع رجل عن رحلة فني فيها وأفنته، أعطاها كل أيامه، أحرقها وقدّمها بكل رضا واغتباط في محراب

تاريخ أمته التي عشقها، ومات في عشقها، فما هي تفاصيل هذه الرحلة، **وهل يجدر فعلاً دفن التاريخ؟**

أولاً: الأصل والنشأة

بدأت رحلة العلي مع التاريخ والعروبة والإسلام من أرض العراق، وتحديداً من مدينة الموصل، الحدباء العربية الصميمة المسلمة، التي غذته كما غذت الأجيال قبله وستواصل بهذا النسغ: الإسلام والعروبة والارتباط العميق بالأرض والتاريخ، صفات غرستها في شخصه الموصل، وتطورت معه في محطات حياته التالية.

قاسمت الموصل العروبة منذ أيامها الأولى؛ فقد كانت مناخ القبائل العربية، مثل عنزة التي تحدّر منها العلي، وشيبان وتغلب وطيء وحمدان وعقيل وسواها. أما الإسلام، فعراقته في الموصل لا تقل تجذراً عن العروبة، وتكفي الإشارة إلى احتفاء المدينة بنزول عشائر الأنصار إليها منذ فترة مبكرة من التاريخ الإسلامي، فأصبحت أماكن مناخهم دالة عليهم، فبقيت الموصل تعتز بأحيائها الأوس والخزرج حتى الوقت الحاضر. علاوة على ذلك، توارثت الاعتزاز بنزول أحد المكيين إليها، فعُرف به أحد الأحياء، لا بل إن جانباً من شواطئها كان اسمه شط المكاوي.

وتوثيقاً لمتانة علاقة الموصل بالإسلام عبر تاريخها المديد، نراها ترفد حضارتنا العربية الإسلامية بسيل لم ينقطع من العلماء في مختلف جوانب العلوم الإسلامية، يتصدرهم أبو يعلى، صاحب **المسند** الشهير. أما التاريخ، فكان له حصته المهمة في المدينة التي احتضنت ورعت أبرز مؤرخي الإسلام، عز الدين ابن الأثير، وكتابه الأشهر **الكامل في التاريخ**.

ولد العلي في أحضان هذه البيئة عام ١٩١٨ وتشبّع بمؤثراتها، فارتبط بالروح العربية منذ أيامه الأولى، حيث أرسله والده إلى البادية لدى عرب الشرابيين، فترصنت لغته العربية، وأصبح على تماس مبكر مع الحياة القبلية العربية. وعاد إلى الموصل في سن الرابعة، ودخل الكتّاب في أحد جوامعها

العريقة القريب من منزله، وهو جامع خزام، وختم فيه القرآن الكريم. ومن ثم التحق بالمدرسة الخضرية التي كانت تجمع آنذاك (أي في أواسط عشرينيات القرن الماضي) بين الابتدائية والثانوية. وكان التعليم قد دخل مرحلة جديدة في إثر انهيار الدولة العثمانية، قوامها بعث الفكرة القومية تحت ظل الدولة العراقية الناشئة. لقد كانت الدراسة الابتدائية رافداً مهمّاً لتغذية شعوره بانتمائه العراقي والعربي، وعنها انبثقت صلته بدراسة التاريخ.

في هذه المرحلة، كان السوق مصدراً مهمّاً في تبلور أفكار العلي؛ فقد تحدّر من عائلة جمعت بين النشاطات التجارية الواسعة وتوارُث مهنة الصرافة، فكان في سنوات طفولته وصباه يرافق والده إلى سوق الصرافين في باب السراي، قلب الموصل التجاري النابض، في الوقت الذي كانت الموصل بدورها القلب النابض لتجارة العراق.

وفي السوق، تجذر اهتمامه بالاقتصاد والمعاملات التجارية والتنوع الاجتماعي ليكون لها في قابل الأيام محلها المميز في مسيرته العلمية، بدءاً من رسالته للدكتوراه **التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري**[1].

ثم جاءت المرحلة المتوسطة ليُظهر العلي فهماً أعمق وأشمل لمحيطه، وتبدأ اهتماماته بالتبلور، فتضاعفت عنايته بالتاريخ على يد شخصية قُدّر لها أن تؤدي دوراً مؤثرا في تكوينه، وتتواصل معه من محطة إلى أخرى، وتتمثّل في المؤرخ الموصلي العالمي مجيد خدوري، الذي درّسه في المتوسطة بعد حصوله على الماجستير في التاريخ من الجامعة الأميركية في بيروت.

أما الإسلام، فقد توسع وعي العلي فيه من خلال تردّده على جمعية الشبان المسلمين التي تأسست في تلك الأثناء، حيث كانت تنساب فيها ـ وفق قوله ـ المحاضرات واللقاءات بروح إصلاحية سمحة هادئة، بما ينسجم مع

---

(١) صالح أحمد العلي، **التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري** (بيروت: دار الطليعة، ١٩٥٥).

طبيعة الشخصية الموصلية المحافظة المعتدلة التي لا تعرف الغلو ولا التطرف.

بينما عززت العروبة لديه بالثقافة السائدة التي كانت تبثها المطبوعات التراثية الوافدة من مصر وكذا المجلات الأدبية والثقافية مثل **الرسالة** و**المقتطف**. وممّا لاشك فيه أن غريزة المطالعة تعمقت فيه، وأصبح الطريق إلى المكتبة العامة وشارع النجفي (شارع الكتب)، الذي يحد منزله من جهة الشمال، محوراً أساسياً من محاور النشاط اليومي.

ثم حصد العلي ثمرة جهده وجِدّه في الدراسة بأن تُوّج في الامتحان الوزاري بالمرتبة الأولى على الموصل والمرتبة الرابعة على العراق. وكانت أقصى أمانيه وأماني الأسرة أن يواصل في دراسته، إلا أن التطورات الاقتصادية الطارئة سدت أمامه كل منفذ؛ فقد أرخت الأزمة العالمية في نهاية العشرينيات ومطلع الثلاثينيات بظلالها القاتمة على أُسرة العلي، أسوة بالعديد من تجار الموصل، فاضطر والد العلي (الصراف) إلى بيع الكثير من أثاث بيته الفاره، ربما لتسديد المستحقات المالية. وعندما توقفت الأعمال التجارية كلياً، لم يكن أمامه من خيار سوى تأجير البيت بمبلغ خمسة دنانير، كانت هي مصدر المعيشة الأساسي.

وهنا يتجسد ـ ربما ـ أمامنا مظهر إضافي لاهتمامه بدراسة الاقتصاد الإسلامي، وتتبّع معايش الناس في كل أرض قادته إليها قدماه، وفي كل صفحة من صفحات التاريخ طالعتها عيناه. إلا أن التأثير الحقيقي تمثّل في دفع العلي إلى التفكير في دخول السلك الوظيفي، والتخلي كلياً عن التجارة، بقوله «أصبح مستقبل الحياة المعاشية مرتبطاً بالوظيفة التي تعتمد على التعلم في المدارس». فلكأنما كان القدر يقود العلي صوب ذاته، فتوجه صوب دار المعلمين الابتدائية في بغداد ليقدم إليها أوراقه، ولينتظم فيها طالباً، مؤملاً أن يتخرج فيها ويسعف عائلته بما يداوي جراحها.

وكان الانتقال إلى بغداد انعطافاً حاسماً في حياة العلي؛ فهو لم يعتدْ أن يكون بعيداً عن أسرته أو مدينته، وأصبح يتعيّن عليه أن يبدأ رحلة الاعتماد على نفسه ويبلور قناعاته الخاصة عن الحياة.

وفي الدار سرعان ما وجد الوافد الجديد نفسه في وسط حشد متنوع من الطلبة القادمين من أصقاع العراق المختلفة، بواقع سبعة طلاب من كل لواء، كانوا متباينين في كل شيء. وكانت مسؤولية التدريسيين جسيمة في لمّ شعث ثقافة الطلبة الإقليمية المفككة المشتتة، وتذويبها في قالب وطني موحّد، أساسه الولاء للوطن، والإيمان بوحدته، وتطبيق الطلاب لذلك في سلك التعليم. **وكان هؤلاء المعلمون هم من وحّد العراق، ووضع الأسس الفعلية لبنائه، وصنع شعور أهله بوحدتهم وانتمائهم وإحساسهم بعروبتهم.**

ومن جانب آخر، اكتسب العلي محبة ورعاية أساتذته الذين سيكون لهم معه وقفات ووقفات في قابل الأيام، وأبرزهم رائد التعليم العالي في العراق متى عقراوي، أول رئيس لجامعة بغداد، وناجي معروف الذي سيرافقه لاحقاً في استقصاء الجانب العربي من الحضارة الإسلامية. وكان للمناضلين القوميين أكرم زعيتر ودرويش المقدادي أثرهما البالغ في تأصيل حب العروبة في نفس العلي، وجعل همّ حياته منصرفاً إلى رفع مناقب أبنائها على الأشهاد.

ثم تخرج العلي في الدار بعد عامين (١٩٣٦)، ودخل سلك التعليم الابتدائي، وأصبح له ـ وللمرة الأولى ـ مورد مالي يمكن أن يؤمّن للأسرة بعض ما يخفف من وطأة وضعها المادي المتدهور.

لكن الرغبة العميقة في التقدم، وهاجسه الداخلي بأنه خُلق ليواصل رحلة الرقي جعلاه يتحمس بشدة لخبر افتتاح دار المعلمين العالية في العام التالي ١٩٣٨. وتلقى التشجيع من أسرته، فحزم حقائبه قاصداً بغداد ثانية ليعاود اقتحامها بروح عرفت الإقدام والثبات، وتمرست بعض الشيء في الحياة.

وانضوى في الدار العالية عام ١٩٣٩، في فرع الاجتماعيات الذي كان يتألف من قسمين، قسم التاريخ وقسم الجغرافيا. وقد وجد الدار العالية «معهد ثقافة عالية ممهدة للبحث»، وسمتها «أكاديمية تهدف إلى التدريس بمستوى لائق.. في أساتذتها ومناهج دروسها واهتماماتها». وتخصص العلي بالتاريخ، فدرس التاريخ القديم والإسلامي والحديث والتاريخ الأوروبي،

تدعمها دروس مساعِدة، كالجغرافيا والاقتصاد وعلم النفس والتربية.

وممّا هو جدير بالإشارة أن من تصدى للتدريس في الدار هم النخبة، فازدهت بأسماء شاخصة، مثل كامل عياد الفلسطيني الذي حصل على شهادته العليا من ألمانيا وصاحب الدراسات الخلدونية البارزة، وطه الهاشمي العسكري والسياسي المعدود، وأستاذين موصليين من أيامه الماضية، أولهما متى عقراوي التربوي، والثاني أستاذه وملهمه في المتوسطة في الموصل مجيد خدوري. وأثاره في عقراوي «نشاط هائل وحيوية دافقة وذكاء وإيمان بالعلم وتقديره للعروبة وثقة بقابلية أبنائها ووجوب إنماء حيويتها بالإفادة من التقدم العلمي».

وجاء التخرج بتفوق، وحصل «الدرمعي» (أي خريج دار المعلمين) على شهادة الليسانس. وبدأ الانطلاق الحقيقي إلى مجال التدريس. وكانت البصرة المحطة الأولى، ومن بعدها بغداد.

في البصرة وبغداد أراد العلي أن يكرّس نفسه مدرساً نشطاً يؤمن بالعلم، ويحرص على العناية بطلبته والاهتمام بارتقائهم فكرياً وعلمياً، عن طريق تنمية ملَكة التفكير لديهم، وبعث اهتمامهم بالتاريخ. وأتاح له حبه للمعرفة وتوقّد ذكائه أن يحظى بمحبة أعلام بارزين، من بينهم العلاّمة أحمد سوسة، الذي كان آنذاك يشغل منصباً مرموقاً في مديرية الري، والعلامة الأب أنستاس الكرملي، الذي لربما ردد على أسماع العلي مراراً أهمية اللغة العربية في عظمتها ودقتها وصعوبة التحكم في ظلالها وتلويناتها الدقيقة.

لكن روحه الوثابة دفعته إلى التقدم للبعثات. وكانت مجالات البعثات لبنان ومصر من البلاد العربية، وبريطانيا والولايات المتحدة وألمانيا من البلاد الأجنبية. ومزية التنوع ـ في رأي العلي ـ هي التحرر من الخضوع لثقافة واحدة. لكن اشتعال الحرب العالمية الثانية وانقطاع السبل إلى أوروبا والولايات المتحدة حصرا الخيارات ببيروت والقاهرة، فكانت القاهرة، والوجهة هي كلية الآداب في جامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة في ما بعد).

في تلك الكلية، توسعت آفاق العلي كثيراً، فاتصل بأساطين الدراسات

التاريخية حسن إبراهيم حسن ومحمد مصطفى زيادة وشفيق غربال وإبراهيم نصحي وسواهم. وأتاح له وجوده في القاهرة أن يلتقي الطلبة القادمين من بلاد الشام، فبدا له هؤلاء على درجة رفيعة من الثقافة والتوجه العروبي الواضح الذي غذى أحاسيسه وميوله الشخصية، التي كان درويش المقدادي وأكرم زعيتر قد ساهما في تكوينها، وهم عبد الله عبد الدايم وسامي الدروبي، ورفيق اهتماماته التاريخية شاكر مصطفى.

وبدأ خط التفوق يتطاول ليجد الطالب نفسه في مقدمة أقرانه، حيث حصل على الليسانس بمرتبة الشرف الأولى، وكان المتخرج الأول للعام الدراسي ١٩٤٤ ـ ١٩٤٥ في كلية الآداب، وحاز جائزة عزيزة في سلسلة التكريمات والجوائز التي نالها في حياته، وهي جائزة جلال صادق.

ومرة أخرى غذى هذا النجاح في العلي طموحاً جديداً نحو آفاق أرحب؛ فاختباره لقدراته في مصر أقنعه بإمكانية إنجاز ما هو أكبر وأعظم، واحتكاكه شخصياً للمرة الأولى ببعض المستشرقين في جامعة القاهرة أكد له أن الطريق ما يزال طويلاً لكي يصبح ما يصبو إليه أن يكون. وخامرته في السنة الأخيرة فكرة الدراسة في بريطانيا، ورنا لناظريه عميد مستعربي العصر هاملتون غب، أستاذ العربية في أكسفورد والعضو المؤسس لمجمع اللغة العربية المصري، فاتصل به بشأن ذلك، فاشترط غب أن يحصل العلي على درجة الامتياز لكي يوافق على الإشراف عليه، مؤكداً أن الدراسات العربية جديرة بأن توضع في مكانها اللائق بين الدراسات اللأكاديمية الغربية، وأن تفرض معاييرها الرفيعة الخاصة بها، بما يضعنا أمام إرهاصات إضافية للموقف المبدئي الذي حمله العلي من التاريخ الإسلامي ودفاعه المجهد عنه.

ثانياً: العلي وأكسفورد

ها هو العلي يجد نفسه ـ ثالثة ـ في مشروع تحدٍّ جديد في بيئة دراسية جديدة، بدأ ببغداد وثنّى بالقاهرة. وها هو الآن في أكسفورد العريقة العتيقة. وكانت صدمة جديدة بكل المقاييس، سواء بالنسبة إلى الجامعة أو إلى غب؛ فالعمل الأكاديمي مرتبط بمشرفه المستشرق البارز، واستمراره في الدراسة

منوط برضاه. وقد بدا غب للعلي إنساناً من طراز خاص، فهو اسكتلندي محافظ قليل الكلام، يعيش في أكسفورد في شبه عزلة، لا يربطه بها رابط إلا كونه أستاذاً لكرسي وليم لود العريق للعربية. وهو ـ كما رآه العلي ـ بمثابة نبتة إسلامية عربية عالمية في تربة أكسفورد، يصول لزحزحة أنظمتها العتيقة لتعترف بالقيمة الأكاديمية للدراسات الإسلامية، وتأبى هي ذلك.

جاء العلي إلى أكسفورد وهو يتمتع بأقصى ما يمكن للمؤسسات الأكاديمية العربية أن تقدمه، دار المعلمين العالية بمستواها الرفيع، وجامعة فؤاد الأول وكلية الآداب التي لها القدح المعلى بين الجامعات العربية، لكنه سرعان ما أدرك الفارق الكبير بين ما هو عليه وما يجب أن يكون، فلقاءاته الأولى بمشرفه غب وطريقة العمل التي رسمها له أكدت له ذلك، حيث يقول:

«كشف [غب] سعة اطلاعي وسطحيتي وحماسي وتشتت أفكاري وضحالة الصورة التي في ذهني عن مجرى التاريخ الإسلامي، فأراد من السنة الأولى أن تتبدل طريقة بحثي وتفكيري، وأن أركز على نقاط ضيقة بدل السطحية المفروشة».

وبدأ التحدي مع كتاب **الخراج** للقاضي أبي يوسف تدريباً شاقاً على التعامل مع النص، ولقاء أسبوعياً مع غب يقدم له ثمرة قراءاته وتحليله لبضع صفحات من الكتاب. وفي الفصل الثاني، انتقل به غب إلى دراسة المدن في عصر صدر الإسلام، في تدريب على العلاقة مع المكان اعتمد فيه على المصادر العربية، فثبّت لديه القناعة بأن أول خطوات بحث أية مشكلة هي دراسة المكان والنظرة التاريخية إلى المكان. أما الفصل الثالث، فكان عن السكان، وتحديداً القبائل العربية في المرحلة المبكرة من التاريخ الإسلامي.

وفي مطلع السنة الدراسية الجديدة، قرر غب اختيار خطط البصرة وتكوينها المبكر موضوعاً للماجستير، لكن ثبات العلي دفع المشرف إلى التوسع صوب الدكتوراه بدراسة موضوع التنظيمات التي أنشأها العرب في البصرة في القرن الأول الهجري. وكان هدف العلي من ذلك استعراض مرونة العرب وإبداعهم في بناء كيانهم السياسي في القرن الهجري الأول، فميله العروبي

جعله يركز على الجهد الحضاري العربي قبل تدخّل العناصر غير العربية في مجرى الحضارة العربية الإسلامية.

وفي نهاية السنة الثالثة، اكتملت الأطروحة ونوقشت، ومُنح بعدها شهادة الدكتوراه في أيلول/ سبتمبر ١٩٤٩. وهكذا، انفض العرس العلمي، وبات البقاء في أكسفورد أطول من ذلك غير مبرر، وعبارات العلي الختامية لمرحلة أكسفورد تفيض إحساساً، كما نقرأ:

«بساطة تامة ووضوح تام واستعداد لتوديع مكان عزيز وعصبة إخوان أعزاء بدون شكليات غادرتها بهدوء، ولم أشعر بألم للفراق، إنه فراق مؤقت للمكان، لكن صورته قائمة في الذهن وحياتها جزء من التكوين الجديد، ونظمها أساس التوجه الجديد، فأكسفورد بقيت بالنسبة لي جزءاً من الذات لا يمحى».

ثالثاً: العلي وبغداد وكلية الآداب والعلوم

كان من الطبيعي أن يرنو العلي بنظره إلى دار المعلمين العالية بحكم وفائه وولائه للمؤسسة، التي كان لها فضل تكوينه وإيفاده، لكن انحسار دورها الأكاديمي على حساب طغيان الجانب التربوي، دفعه إلى النظر صوب الكلية المؤسسة حديثاً: كلية الآداب والعلوم.

في الكلية الجديدة، بدأت الرحلة الشاقة والطويلة التي تجاوزت نصف قرن، للبناء الأكاديمي للدراسات الإنسانية في العراق، سواء عن طريق التدريس أو الإدارة أو البحث الأكاديمي، فكانت هذه الحقول متلازمة متداخلة يسند بعضها بعضاً، وهي التي صنعت العلم العراقي الموصلي السامق أ. د. صالح أحمد العلي.

أول ما استرعى العلي في الكلية الجديدة عميدها والروح المحركة لها، أي د. عبد العزيز الدوري، الذي يعدّ أنموذجاً نادراً ربما سيأتي يوم لن يصدق الكثيرون أن ما قام به من إنجازات حقيقة واقعة وليس ضرباً من الخيال، فيسجل العلي:

«استطاع الدوري بمرونته العالية وذكائه السياسي ودبلوماسيته ودماثة أخلاقه ومثُله السامية أن يكون ملهماً لكل من عمل معه، فكان بحق من صنف نادر من البشر. . . فهو يجيد توليد الثقة في شخصه لدى الآخرين، واستثارتهم لبذل أقصى الطاقات، وكان دؤوباً بصورة مدهشة على العمل، فقد يأخذ منه أكثر من عشر ساعات في اليوم دون أن يبدي تعباً أو مللاً أو تشكياً. . . بجانب دماثته وهدوئه وضبط النفس وقلة الكلام. . . وهو صبور على تحمّل الأذى، وقلّما يقابل الإساءة بمثلها، بل كثيراً ما يقابل الإساءة بالإحسان والأذى بالصفح، وله القدرة على أن لا يدع المعاكسات تضعضعه أو تفقده القدرة على ضبط النفس».

وقد وجد العلي في الدوري الرفيق الذي يجدر أن يمضي المرء معه رحلة البناء، ووجد الدوري في العلي صديقاً صدوقاً محباً ومخلصاً، والأهم من ذلك مؤمناً بالمبادئ العربية السامية التي يحملها، مع امتلاكه المؤهلات المطلوبة، فربطت بين الرجلين علاقة من نوع خاص، يندر أن تجمع بين عالِمين حملا التخصص نفسه، وعاشا الهم العربي، وعانيا معاً تقلبات الزمان وصروفه.

بدأ العلي والدوري يضعان مناهج قسم التاريخ، كان البعض منها متأثراً بمناهج دار المعلمين العالية، والبعض الآخر مستوحياً مصر أو أكسفورد. وتولّى العلي تدريس مقرَّري تاريخ العرب قبل الإسلام والتاريخ الساساني، وأهمية الأول نابعة من صلته بعصر النبوة والراشدين، أما التاريخ الساساني فكانت دراسته أيضاً مرتبطة بالعراق، لأنها تعود به إلى الأرض والسكان قبل الوجود الإسلامي.

وهنا يسجل العلي أول وقفاته القومية، فيخلص بعد تعمّق وتدبّر إلى هزالة الدولة الفارسية، «**وإن التغني بمجد ساسان واهي الأساس**». أما الحركة الفكرية الساسانية، فكانت ضئيلة التأثير، وليس للساسانيين نشاط يُذكر في مجال الأدب أو الشعر. وعلى المستوى الديني، تغذت الحركات الدينية المعارضة التي ظهرت في التاريخ الإسلامي على الفكر الديني الساساني.

وكانت ثمرة محاضراته كتابه الأول **محاضرات في تاريخ العرب قبل**

الإسلام[٢]، الذي حصد شهرة كبيرة، ونُشر في ثماني طبعات، وامتد مجاله على مساحة موضوعية وزمنية ومكانية واسعة، حيث درس تاريخ العرب قبل الإسلام، في نظمهم السياسية والدينية والحضارية على امتداد الجزيرة العربية وأطرافها، منهياً كتابه مع هجرة النبي محمد (ﷺ) إلى المدينة، على أمل أن يكمل ذلك بدراسة مستقلة عن دولة الرسول في المدينة، لكن الكتاب المنشود تأخر نشره نحو ثلاثة عقود، بسبب من طبيعة النقد الذي واجهه (المحاضرات)، إذ صنِّف حينذاك مجدداً لدى البعض، ومستغرباً لدى غيرهم. لكن موقفه كان ثابتاً: دراسة التاريخ لا تستهدف التمجيد أو سرد الفضائل، وإن عرض الحقائق التاريخية يكفي وحده ليظهر عظمة الإسلام وإبداعه الأسمى (**الحضارة العربية الإسلامية**).

رابعاً: الانقلاب على الملَكية

في الوقت الذي كان العلي يخطو خطى مطمئنة في مجال التدريس والبحث العلمي، كانت نذر الخطر تعصف بالواقع العراقي؛ فقد أصبح النظام الملكي على شفير الانهيار بفعل عنف التيارات التي كانت تضرب بعمق جذوره، سواء تحت تأثير الدعاية القومية الناصرية التي اخترقت سورية وباتت قريبة من اختراق العراق، أو بفعل الجماعات الاشتراكية اليسارية التي يدعمها الاتحاد السوفياتي. وممّا لاشك فيه أن انعكاس هذه الأفكار كان أشد ما يكون على الطلبة، وتحديداً طلبة الكليات، فتضاعف عنف المظاهرات التي كانت تخرج من كليات بغداد، ليتفجر الوضع صبيحة الرابع عشر من تموز/ يوليو ١٩٥٨، عندما أذيع البيان الأول للثورة، فاندفعت الجماهير الهائجة لسحق كل ما يربطها بالماضي، الذي لم تنصرم إلا ساعات قليلة على زواله...

وترك ذلك تأثيره في الجامعة، فيسجل العلي أنها «مرت برجّة سياسية غمرت أكثر طلبتها وأساتذتها واتسمت بعنف، انحدرت في بعض أوجهها

---

(٢) صالح أحمد العلي، **محاضرات في تاريخ العرب قبل الإسلام** (الموصل: مؤسسة دار الكتب، ١٩٨٦).

إلى ديماغوجية عاطفية . . . يذبح فيها العقل». وأكثر ما آلمه أنه لم تكد تمضي أشهر قليلة على تأسيس جامعة بغداد، ذلك الحلم الذي تفانى من أجل تحقيقه علماء مخلصون بررة لبلدهم وشعبهم، حتى وصِم هؤلاء، بعد هذا المجهود العظيم بأشهر قليلة، بأنهم رجال العهد البائد، من أمثال متى عقراوي وناجي الأصيل والدكتور الدوري.

ولم يسلم العلي بدوره من العنت والأذى؛ فمواقفه القومية وحسه النقدي كانا أكبر من أن يتسع لهما العهد الجديد، فكان مصيره السجن والإبعاد، أولاً إلى الكوت ثم إلى السليمانية، وفضّل بعد عودته إلى بغداد النفي الاختياري، فغادر العراق إلى بيروت ليتولى التدريس في الجامعة الأميركية، التي ساهم فيها بعدد من النشاطات العلمية، من بينها كتاب حرره قسطنطين زريق عن الأدب العربي.

واستأنف العلي بعد عودته إلى بغداد نشاطه البحثي، فقدم للنشر ترجمته لكتاب فرانز روزنثال اللامع **علم التاريخ عند المسلمين**، فكانت تلك أول مساهماته في حقل مهم سيكون له فيه يد عليا، يتمثّل في الاهتمام بالدراسات المتعلقة بعلم التاريخ والفكر التاريخي تأليفاً وتعريباً. وتعريب العلي لكتاب روزنثال يعدّ محطة مهمة بالنسبة إليه، لأنه أثبت الكفاءة والتميز اللذين لا يمكن أن يعكسهما إلا من امتلك ناصية الحقل الذي يترجمه. إلا أن أهم آثاره في هذا الكتاب، إلى جانب ترجمته الرائقة للنص، هو التقديم الذي مثّل تناوله الأول لموضوع مكانة التاريخ عند العرب والمسلمين وأهمية المؤرخ، موقفه ودفاعه الشخصي عن التاريخ.

في البدء، يسجل العلي أن «التاريخ من أهم ميادين المعرفة التي اهتم بها العرب وتدارسوها وألّفوا فيها»، لا بل **إن التاريخ «من أهم فروع المعرفة الإنسانية بل هو المعرفة والعلم الذي يظهر الإنسانية على حقيقتها»**. واهتمام العرب بالتاريخ يعود ـ كما يؤكد العلي ـ إلى ما قبل الإسلام، استناداً إلى عنايتهم البالغة بالنسب ومفاخر الأجداد، وجاء الإسلام ليعمّق هذا الاهتمام، فتتضاعف الإشارات إلى الأمم الماضية والتماس العبرة منها، كما

تؤشر أهمية التاريخ بربط الدين الجديد بدين إبراهيم الخليل، ثم نقل العرب الاهتمام بالتاريخ إلى الشعوب التي انضوت تحت لوائهم. ويلاحظ العلي أن المسلمين هم أكثر أمة أنتجت في مجال البحث التاريخي، حيث «لم يتركوا جانباً من جوانب النشاط الإنساني دون أن يسجلوا تاريخه»، وأن عودة العرب في نهاية القرن التاسع عشر إلى الاهتمام بدراسة التاريخ إنما جاء بوحي من حركة الإحياء الشاملة التي عاشوها، وكان قوامها البحث عن الذات، وتنمية الشعور القومي بعد أن أدركوا «**أهمية التاريخ بوصفه وسيلة لمعرفة الذات وأداة كبرى للكشف عن قابليات الأمة وطاقاتها الإبداعية ومثير كبير للهمم**».

● بين العمادة والبحث والدراسات العليا

حُسم في شباط/ فبراير ١٩٦٣ الصراع بين عبد الكريم قاسم وأنصاره من جهة وعبد السلام عارف والقوميين من جهة أخرى، بمعركة عنيفة دارت رحاها حول وزارة الدفاع، وانتهت بتوليّ عارف الحكم وطي صفحة أخرى من صفحات تاريخ هذا البلد.

وعلى قدر تعلّق الأمر بالجامعة، كان منطقياً أن يتسنّم الدوري موقعه الطبيعي في قيادة الحركة الأكاديمية العراقية، فتولى منصب رئاسة جامعة بغداد، وأسند بدوره إلى العلي منصب عميد معهد الدراسات الإسلامية العليا، الذي كان نواة الدراسات العليا في التاريخ في العراق. وقد قبل العلي ـ بشهادة الدوري ـ المنصب على مضض، بعد أن تعهد له بأن يقلص مسؤوليات الإدارة إلى أدنى حد، وسرعان ما صار المبنى محل الباحثين من طلبة ومدرسين، وتوافرت فيه بيئة علمية مشجعة، وتوسعت المكتبة لتصبح مكتبة بحث فريدة في الجامعة.

وبدأت محطة جديدة في نشاط العلي، ألا وهي تدريس طلبة الدراسات العليا والإشراف على رسائلهم؛ فبالنسبة إلى التدريس، اختار موضوع خطط المدن العربية، مركّزاً على بغداد، أما بالنسبة إلى الإشراف، فقد تلقى الطلبة الذين عملوا بإشرافه ـ في سني عمره المديدة ـ تدريباً قاسياً ومرّاً عجم فيه

عودهم، فلم يكن يقنع من طلبته إلا ببذل أقصى جهدهم، وكانت تتطاول الأيام والأشهر والسنوات ويبقى الطلبة ينتظرون الإذن منه لتقديم الرسالة للمناقشة، فلا يقبل ذلك إلا على مضض. وتخرج على يديه في تلك المرحلة عدد من العلماء الذين ستكون لهم إنجازاتهم التاريخية والفكرية المعدودة، من أمثال أ. د. عماد الدين خليل؛ أ. د. عبد الجبار ناجي؛ أ. د. أكرم ضياء العمري، وغيرهم.

ويبدو أن عام ١٩٦٣ كان مفتاحاً لكثير من مفاصل حياة العلي؛ فإلى جانب تولّيه عمادة المعهد، اختير أيضاً عضواً في المجمع العلمي العراقي، وهو ما يؤشر إلى المكانة التي بات يتمتع بها، ليبدأ مشواره مع أرفع مؤسسة علمية في العراق، وستقع عليه في ما بعد مسؤولية رئاستها لأكثر من سبعة عشر عاماً. كما ستحتضن مجلة المجمع الكثير من أبحاثه. وقد أدى اهتمامه بالحجاز إلى صداقة وطيدة مع صنوه الراحل حمد الجاسر، العلم والبلداني السعودي اللامع، نتج منها أن أصبحت **مجلة العرب** التي يصدرها الجاسر الملاذ الذي يسّر للعلي أن يمضي لنشر دراساته عن الحجاز حتى سني حياته الأخيرة.

واهتمام العلي بالحجاز مبعثه ولا شك اهتمامه المبكر بالجزيرة العربية، باعتبارها مهد العرب، وما تبعه من اهتمامه بالسيرة النبوية المشرفة، ويعلل ذلك بقوله:

«للحجاز أهمية خاصة، ففيها ولد الرسول وعاش، كذلك صحابته. والمدينة هي العاصمة الأولى للدولة العربية التي انطلقت منها البعوث، والمركز الذي أشرف على إدارة الدولة الإسلامية، ومركز معرفة السنّة وأعمال الرسول، وقاعدة الحركة الفكرية في العقود الأولى للإسلام، أما مكة فهي مركز الحج وموطن قريش».

علاوة على ذلك، واصل العلي النشر في مجلة **سومر** العلمية الرصينة، حيث خصها بدراستين بالغتي الأهمية: قدّم في أولاهما بعض ما توصل إليه من نتائج بشأن دراسة منطقة الكوفة، ذلك المصر العراقي الثاني الذي شغله إلى

جانب البصرة طوال حياته البحثية، فقد كان يتابع ما يصدر بشأنهما من دراسات فيعدل ويصحح مسوداته وأوراقه، ويدقق آراءه وأحكامه عنهما، فينشر ما يخص يتعلق بالبصرة، ويواصل تعديل مخطوط الكوفة الذي رضي عنه أخيراً قبيل وفاته، ودفعه إلى النشر. وقد تحدث باعتزاز عن هذه الدراسة في أواخر أيامه قائلاً:

«إن دراستي عن الكوفة وأهلها مستوعبة في وصف الأرض وتنظيم السكان وتركيبهم، ثم التطورات الحضارية التي مروا بها وآثارها في الأحوال السياسية».

ويتواصل اهتمام العلي بنقد النصوص ودفاعه عن التاريخ، فيعقّب على مقدمته لكتاب روزنثال بعرض يتسم بالعمق والإحاطة تضمنه كتيب بعنوان **تفسير التاريخ**، كتبه بالمشاركة مع الدوري وزميليه في قسم التاريخ جعفر خصباك وياسين عبد الكريم، وقدّم فيه تناولاً رفيعاً عالج فيه أولاً مكانة علم التاريخ عند العرب والمسلمين. وفيه نبّه إلى أن المسلمين قدّموا تراثاً غنياً في مجال فلسفة التاريخ، منطلقين من القرآن الكريم الذي أكد أن **الإسلام دين يضع التاريخ في جوهر اعتقاده**، بفلسفة تشتمل على قوانين، وأنظمة لسير الإنسان وسعادته، وللمجتمعات وتطورها والبشرية ومصائرها. ويعود العلي إلى طرحه السابق في مقدمة لكتاب روزنثال عن ربط القرآن للإسلام بالديانات السماوية التي نزلت قبله، واتباع الرسول (ﷺ) لملّة إبراهيم. ويرى العلي في مساهمات المسلمين لدراسة فلسفة التاريخ انعكاساً لـ «مدى عمق تفكيرهم ونظرتهم الإنسانية واهتمامهم بالمقاييس الخلقية».

ويقارن العلي ذلك بالنظرة الأوروبية للتاريخ ليرى أن النهضة الأوروبية لم تولِ التاريخ اهتماماً ملحوظاً، فتوجهت صوب المادة، بينما قصرت توجهاتها الفكرية على العلوم الطبيعية والرياضية، فقد أدى التوسع في مجال الإنتاج والصناعة بالناس إلى أن تسلّم قيادها للعلم، معتقدة أن «العلم هو الشيء الوحيد الموثوق بصحته، وأن الطريقة العلمية هي الوسيلة الوحيدة للوصول إلى المعرفة الصحيحة، وأن كل معرفة لا يتم التوصل

إليها بالطريقة العلمية لا يمكن الوثوق بصحتها أو الاعتماد عليها».

لا بل تعسف الأوروبيون، فحاولوا تطبيق التفسيرات الطبيعية والعلمية على دراسة العلوم الإنسانية ومنها التاريخ، فإذا كان لذلك نتائج إيجابية تمثّلت بالدقة والحذر في التثبت من الحقائق وصياغتها والتشديد الدقيق على كل نقطة، وفحص مختلف الأدلة بغية الوصول إلى نتائج مضبوطة، لكنه بالمقابل جعل الدراسة التاريخية أمراً شاقاً صعباً ومملاً، حيث انصرف همّ الباحثين إلى التعمق في نقاط جزئية لا تعطي صورة واضحة لسير الإنسانية أو تطور المجتمع. وهو يؤكد استحالة تطبيق المنهج العلمي القائم على المشاهدة والتجربة والاختبار على دراسة التاريخ، ويعلل ذلك بالأسباب الآتية:

١ ـ لا يمكن رصد حوادث التاريخ مخبرياً لأنها تحدث وتنتهي ولا تتكرر.

٢ ـ المواد الخاضعة للدراسة في العلوم الطبيعية مواد جامدة لا تدرس بواطنها ودخائلها، أما المواد التي يدرسها التاريخ، فكائنات حية لها إحساس وشعور وإدراك باطني وتفكير، ولا تستجيب الاستجابة عينها للمؤثر نفسه، فهي كائنات معقدة ذات دوافع متعددة منوعة يصعب سبر غورها.

٣ ـ في الدراسة الطبيعية يمكن التجرد التام وتجنّب التأثير الشخصي للدارس، وهذا من الصعب أن يتحقق في دراسة التاريخ. فللدارس ميوله ورغباته، ولهذه أثرها الخطير في تناوله للتاريخ، وتتجلى باختياره للموضوع الذي يدرسه واستخدامه لذهنه وأفكاره الخاصة لفهم حوادث الماضي، فتناول أية حادثة لا يتوقف على الحادثة بل ينسحب على فكر المؤرخ نفسه أيضاً.

٤ ـ إن ضخامة المادة التاريخية تمنع الباحث أحياناً من استيعاب جميع ما كُتب، وبالتالي تعجزه عن إصدار الإحكام القاطعة في قضية ما، واستنتاجاته يمكن أن تُدحض في حال توافر أدلة ووثائق جديدة.

٥ ـ ثم يتوقف العلي أمام مسألتين دقيقتين: الأولى أن المؤرخ، خلافاً لعالم الطبيعيات، يجد صعوبة بالغة في تحديد النقطة التي ينتهي عندها بحثه، وذلك لتشعّب البحث التاريخي، وتعقّد التجربة البشرية، وتدافع الأسئلة التي

تتولد بدورها عن إجابات لأسئلة سابقة. ويخلص العلي إلى أن افتراق التاريخ عن العلوم الطبيعية ينبغي ألّا يبخسه مكانته أو عناية الباحثين بدراسته، فهو **دراسة الإنسان على حقيقته، وهو السبيل الرئيسي، إن لم يكن الوحيد، لمعرفة عادات الأمة وتقاليدها والعناصر المقومة لها، والتي تعطيها ميزاتها الخاصة بها وتؤثر في أوضاعها وآمالها وآلامها.**

خامساً: انقلاب عام ١٩٦٨

استيقظ العراقيون في صبيحة ١٧ تموز/ يوليو ١٩٦٨ على أنباء وقوع انقلاب على حكم عبد الرحمن عارف قاده تيار سياسي، هو البعث. وكان الحكم الجديد حريصاً على بسط سيطرته التامة على جميع مفاصل الدولة، فشرع في حملة تغيير واسعة في القيادات الإدارية. وطاولت التغييرات الجامعة، واستهدفت أول ما استهدفت الدوري الذي عُزل من منصب رئاسة جامعة بغداد، وصدر الأمر بحجز أمواله المنقولة وغير المنقولة، فكان قراراً غير منصف بحق قمة شامخة، هدفه إبعاده بهالته التي تغطي على من سواها في عالم الإدارة والفكر، فما كان منه، وقد فهم المراد، إلا أن غادر العراق واستقر في الجامعة الأردنية، فخسر العراق أحد نوادر علمائه وأخلص أبنائه. وطاولت الخطوة التالية العلي، حيث أُلغي معهد الدراسات الإسلامية العليا، وتم توزيع طلبته على الكليات ذات العلاقة باختصاصاتهم، فعاد إلى كلية الآداب، كما كان يهوى، مدرّساً في الكلية التي أسسها، وباحثاً لا يكل في سبر أغوار التاريخ العربي.

● العلي رئيساً للمجمع العلمي العراقي

كانت منزلة العلي العلمية الرفيعة قد تخطت العراق لتمتد إلى الوطن العربي ومن ثم العالم؛ فقد أصبح عضواً في عدد من المجامع العربية منذ بداية السبعينيات، وتعززت مكانته في المجمع العلمي العراقي، سواء من خلال مساهماته الفاعلة في نشاطاته أو من خلال تواتر النشر في دوريته، فضلاً عن أن توجهه القومي وارتقاء طلبته مناصب قيادية في الدولة، كل ذلك جعل

انتخاب العلي رئيساً للمجمع العلمي العراقي عند إعادة تشكيله أمراً طبيعياً ومقبولاً.

وفي واقع الأمر، لم يثر منصب رئاسة المجمع لديه إلا القلق؛ فهو لم يكن قط شغوفاً بالمناصب أياً كان نوعها وصلاحياتها؛ فهو، أسوة بالعلماء الكبار، مؤمن بأن مكانته يقررها علمه أولاً وآخراً، وأشد ما يخشاه أن تضعِف الإدارة عطاءه العلمي حتى لو كانت هذه المؤسسة هي أرفع مؤسسة علمية عراقية. أما الأمر الثاني، فهو أن المجمع، كما يذكر العلي، مؤسسة رسمية تتطلب ممّن يقوم على إدارتها أن يكون على علاقة طيبة بالقائمين على الشؤون السياسية، وهو بطبعه يتحاشى السياسة وأهلها، ولا يرى نفسه مجيداً للتعامل مع من هم خارج وسطه الأكاديمي، لأنه مفكر تكونت شخصيته أساساً على حرية الفكر والتعبير والموضوعية الأكاديمية وحرية النقد، بينما تقتضي المناصب الرسمية نسيجاً من العلاقات العامة التي لم يعرفها العلي، ولم يحفل بها طوال حياته.

ومن يتابع ما سطّره العلي من إنجازات في أثناء رئاسته للمجمع يره يؤكد الجوانب العلمية من دون الإدارية، فنجده يولي مكتبة المجمع بالغ اهتمامه؛ إذ أغناها بمصورات المخطوطات وبالمطبوعات التي كان يحصل عليها من مختلف دول العالم عن طريق الإهداء والتبادل مع المؤسسات الأكاديمية والثقافية. واهتم كذلك بتعريب المصطلحات العلمية الغربية، ونشرها بين المؤسسات المعنية، وتوفير المجال للعلماء البارزين في العراق لمتابعة أبحاثهم ودراساتهم. لكن الظروف باتت تضيق بالمجمع مع تواصل الحرب العراقية ـ الإيرانية في الثمانينيات، وتقلّص الإنفاق الحكومي، وتباعد العلي تدريجياً عن الاتصال بالسلطة. وبات يسود لديه شعور مع مطلع التسعينيات ـ حسب قوله ـ أن إسناد الجهات العليا له قد تضاءل لإحساس عام بأنه «لا يقوم بما يدعم هذه الجهات أو يعزز مكانتها»، وقوى ذلك «صدوفه عن الدعاية الإعلامية وإيمانه بوجوب بقاء المجمع بعيداً عن التيارات الآنية والمتقلبة». ولعل العلي يقصد بقوله هذا ما جرّه احتلال

الكويت عام ١٩٩١ من مزايدات ومناكفات دعمتها الدولة حول عراقية الكويت، وتبنّاها عدد من المؤرخين ممن ركبوا مركب الإعلام.

وبالفعل، تسلم العلي في حزيران/ يونيو ١٩٩٦ قراراً بعزله وتولّي د. ناجح الراوي ـ الوزير السابق ـ رئاسة المجمع، وإقصاء أعضاء المجمع السابقين، وتعيين أعضاء جدد، لتنتهي بذلك مرحلة من حياته كانت حافلة بالنشاط المتنوع، وتبدأ محطته الأخيرة في رحلة الحياة.

كانت سنوات العلي في رئاسة المجمع أثرى سني حياته من حيث النشر؛ فقد توافر للمرة الأولى على الاهتمام بنشر الكتب، لأنه أيقن بعد تجربة سنواته الماضية مع الأبحاث أهمية الكتب في تخليد الأثر والذكرى. وقد أنجز العلي في أقل من عقد من الزمن نشر ١٧ كتاباً، من بينها كتب مؤلفة هي **الأحواز في العهود الإسلامية الأولى**، و**دراسات في تطور الحركة الفكرية في صدر الإسلام**، و**امتداد العرب في صدر الإسلام**. كما صدر له عن المجمع العلمي كتابه النفيس **بغداد مدينة السلام** (١٩٨٥). وكذلك دراساته للجانب الشرقي التي ضمّنها كتابه **معالم بغداد الإدارية والعمرانية**. ثم قدم في العام التالي خلاصة جهوده في دراسة البصرة ومنطقتها.

ثم قرر أخيراً أن يدفع إلى النشر الجزء المكمل لكتاب (المحاضرات)، أي **دولة الرسول محمد** (ﷺ) عام ١٩٨٨، وصدر أيضاً عن المجمع العلمي العراقي، فكان بحق الكتاب الذي طال انتظاره. ولعل أهمية الكتاب تتجلى في طول فترة الانتظار وتضاعف المادة التاريخية الأولية والدراسات الحديثة عن الموضوع، علاوة على نضج العلي فكرياً. ولعل المقدمة التي استهل بها الكتاب هي أصدق تعبير عن ذلك، حيث يقول العلي:

«إن الدراسة الحالية تقدم صورة عامة لمجرى الحوادث في حياة الرسول (ﷺ) وبعيد وفاته، وكثير من الحقائق التي وردت فيها معروفة في ما نشر من كتب ودراسات سابقة، وقد روعي فيها إظهار الأحوال القائمة التي كان لها أثر في مجرى الأحداث، وبذلك استهدفت ربط الحوادث المنفردة بالأحوال العامة، ممّا يعين على فهم أسلم لمكانتها وأهميتها ومساراتها.

ومن مظاهر عظمة الرسول (ﷺ) إدراكه الثاقب لتلك الأحوال، وأعماله الناجحة في الإفادة منها في تحقيق الإنجاز الباهر الذي توصل إليه، فالدراسة راعت متابعة الأحداث وتلاحمها مع الأوضاع العامة القائمة، ولم تقتصر على سرد الحوادث السياسية والحربية، وإنما امتدت إلى تقدير أهمية الحوادث، وإلى معالجة الجوانب الاجتماعية والإدارية والأخلاقية التي أبرزت بعد دراسة دقيقة وتأمل هادئ، ومحاولة النظر في الأحداث والأحوال كما كانت في حينها، مع تجنب المبالغات التي أفضاها عدد من المتأخرين، والتوجهات المتقولبة التي حاول البعض صب الأحداث فيها، وكان رائدنا عرض الحقيقة كما تراءت لنا».

وأتبع كتبه السابقة بكتابين آخرين على قدر كبير من الأهمية : الأول بعنوان **دراسات في الإدارة الإسلامية**، والثاني بعنوان **الخراج**، وهو دراسة مجهدة أتحفنا فيها بخلاصة تجربته الغنية في موضوع الأرض في العراق.

وفي حقل الترجمة، كانت للعلي مساهماته المنقطعة النظير، حيث نشر خمسة كتب، اختص أربعة منها ببغداد ووسط العراق هي : كتاب ليسنر **خطط بغداد في العهود العباسية الأولى**، وكتاب جورج مقدسي البالغ الأهمية **خطط بغداد في القرن الخامس الهجري**، ثم كتاب أدامز **أطراف بغداد : تاريخ الاستيطان في سهول ديالى**، الذي شاركه فيه كل من د. علي المياح ود. عامر سليمان. بينما كان رابع الكتب كتاب إلواز موسيل **الفرات الأوسط**، وخامسها **الاتجاهات العامة في الأبحاث التاريخية** لجفري باراكلو.

وفي المجمع العلمي، غذّى حسه العروبي من خلال تضاعف عنايته باللغة العربية وتاريخها ومقوماتها ومفرداتها، ومن خلال اتصاله بأعلام العربية الكبار، فكانت اللغة في نظر العلي عنوان الهوية، فهي «وعاء الفكر وأداة التعبير ووسيلة الاتصال والعامل الأقوى في ديمومة الأمة وخلودها». ويفسر العبارة الأخيرة بصورة نافذة حينما يقول :

«إن زوال الأمم في التاريخ لم يكن مرجعه فناء أجساد أبنائها بقدر ما هو تركهم لغتهم التي يتكلمون بها وأخذهم بدلها لغة أخرى . . . فاللغة هي

الرابطة الأقوى التي تجمع أبناء الأمة وتعمل على تماسكهم وتعين على استمراريتهم وخلودهم».

سادساً: العلي والتنظير لتاريخ عام للعرب

على الرغم من أن كل ما خطّه يراع العلي طوال ما انصرم من حياته قد تمحور حول توجهه العروبي وتعلقه بأمته، فإن أهم إنجازاته تلك التي تناولت تصوراته حول إعادة كتاب تاريخ شامل للأمة العربية، يعبّر فيه العرب عن أنفسهم بالصورة العلمية الأكاديمية الرحبة والمتماسكة، بعيداً عن تحيز التصورات الخارجية وعجز أو قصور التصورات الإقليمية الضيقة.

وكتب في شأن ذلك عدداً كبيراً من الأبحاث هي «كتابة التاريخ مشكلة أساسية وعالمية»، و «كتابة تاريخ العرب: الواقع والأحوال»، و«كتابة التاريخ: قضايا جديرة بالحسم»، وأردف بها عملاً مفصّلاً بعنوان «إعادة كتابة التاريخ» ضمن ندوة بغداد لكتابة التاريخ العربي عام ١٩٨١. ثم قدم عام ١٩٨٦ بحثاً خامساً بعنوان «كتابة تاريخ العرب: مسوغات تجديده وتوجهاته» ضمن الندوة القومية لكتابة التاريخ، وأضاف بحثاً سادساً في العام الذي تلاه حمل عنوان «مسوغات تجديد كتابة التاريخ»، وعقب عام ١٩٩٢ بسابع عنوانه «كتابة تاريخ عام للعرب: أهميتها وبعض مشاكلها».

وتندرج أفكاره ضمن عدة محاور، منها:

أهمية دراسة التاريخ، وموقف العرب منه، ودور الإسلام في تثوير المعرفة التاريخية، وخصائص الكتاب المنشود: فبالنسبة إلى **المحور الأول**: أعاد تأكيد طروحاته حول أهمية التاريخ في معرفة الأمة لهويتها، حيث يؤكد أن المؤرخ **هو من يحرر الأمة من تبعيتها، ويؤكد لها عناصر التقدم والتطور**، لأن التاريخ «قوة كاشفة تزيد المعرفة وتوسع الأفق وتخلق مرونة فكرية هي الأساس الأول في كل تقدم»، فمن مظاهر عظمة الحضارة العربية ومن عوامل بقائها واحتفاظها بقوة التماسك هي المرونة التي أظهرها العرب في تطوير المؤسسات لتصبح فاعلة في حفظ كيانهم.

ويخلص العلي إلى أن الأهداف الجديدة للأمة تتطلب منها كتابة جديدة للتاريخ، تكشف حقيقة مكونات الأمة وأصولها، وتكون أداة لصيانة مثلها وقيمها وتساعد على تقدمها، **فلا يُدرس الماضي للاقتصار على تمجيده والجمود عليه، وإنما كقوة فاعلة للحاضر والمستقبل، فالتاريخ يدرس الماضي ليوضح الحاضر وليكون قوة فاعلة في توجيهه نحو المستقبل.**

أما بالنسبة إلى **المحور الثاني**، فيسير العلي على ما سبق أن طرحه من أفكار من أن العرب أمة تاريخية، « أي أن تأثير التاريخ يفوق أي مؤثر آخر في حياة العرب الحاضرة وفي توجهاتهم ومُثلهم وآمالهم. وقد تجلّى قبل الإسلام باهتمام العرب بأنسابهم وحرصهم على حفظها، وأن الإسلام قد دعم هذا التوجه من خلال إبرازه لسير الأنبياء وتأكيده على مسألة البعث التي تلزم الإنسان بتاريخه، أي سعيه في الحياة وتحاسبه عليه يوم القيامة».

ويسجل العلي أن «كتب التاريخ العربية فاقت في عددها ما ألف في أي لغة أخرى، ولعلها زادت على مجموع ما ألفته الأمم الأخرى فيه حتى الأزمنة الحديثة».

ويرتبط الطرحان السابقان بـ **المحور الثالث** الذي هو غاية العلي من أبحاثه، ألا وهو كيف يمكن كتابة تاريخ جديد للعرب؟ فبالنسبة إليه، إن كتابة التاريخ هي مسؤولية العرب أنفسهم، لأن التحديات المعاصرة تملي عليهم أن يتكوّن لديهم تفسيرهم الخاص لتاريخهم، لما لهذا التفسير من أهمية في تأكيد مكونات الأمة والكشف عن هويتها.

ويقود تناول العلي لهذا الموضوع إلى مسألة جوهرية دار حولها مشروع كتاباته في مجمله، وهي توظيف التاريخ لتنمية الوعي القومي العربي، فيفيد بأن المنهج الذي تبنّته أرقى الدول في العالم لا يبتعد عن توجيه دراسة التاريخ بما يتلاءم مع المثل العليا للمجتمع، فالإنكليز فسروا التاريخ من وجهة نظر ليبرالية، فركزوا على ما انسجم في تاريخهم مع هذه التصورات وأهملوا ما يخالفها، وحتى اهتمامهم بدراسة التاريخ الكلاسيكي اليوناني والروماني كان منحصراً في المفاهيم الليبرالية والديمقراطية التي تجسدت في

أثينا، بينما أُهملت إسبارطة ذات النظام العسكري للسبب نفسه.

سابعاً: الفصل الأخير

تقبّل العلي قرار إقصائه وزملائه العلماء من المجمع العلمي بسكينة يشوبها الأسى، وقرر أن يخلد إلى بيته لا يغادره. لقد اقترب من عامه الثمانين، ونالت منه الشيخوخة والأمراض الكثير، جلطات في الدماغ أعسرت النظر بعينه اليسرى، وأضعفت حركته، وارتفاع في السكر والضغط وأمراض الكلية... إلى آخره من قائمة ضاعفت منها تقلبات الأيام وتنكّر الزمان وأهله. لكن كان ثمة ما هو أقسى من ذلك بالنسبة إليه، وهو الواقع الجديد الذي بات عليه أن يعيشه، جالساً في بيته يتأمل من طرف قصي بغداده وعراقه وهو يسير في طريق الهاوية بفعل معاول الهدم التي تضافر فيها الغريب الحاقد والقريب الحاسد والابن الجاحد، والحصار المر الذي كان يحفر أخاديده عميقاً في وجه العراق النضر، فتعسرت الحياة، وغادر الأحباب إلى جنبات العالم بحثاً عن قليل من كرامة العيش.

وعلى مستوى أسرته، أُسقط في يده أنه لم يعد قادراً على تأمين العيش لهذه الأسرة، فالراتب التقاعدي الذي أصبح يتقاضاه لا يكفي للأدنى الأدنى من متطلبات الحياة.

أثارت تلك الأوضاع التي عصفت ببغداد تأملات عميقة من العلي، وأذكر أنه كان يتنبأ بانتكاس كبير يطاول العراق بعد هذه الهزة الاقتصادية الكبيرة، محذراً حينها من هاوية مرعبة قريبة؛ فالأوضاع المتدهورة والأزمات الاقتصادية غالباً ما تخلق هزات اجتماعية عنيفة، وكان ينتظر والهلع يكاد يخنق أنفاسه. ها هو يقرأ التاريخ في ضوء مستجدات واقعه الذي يحياه، فكانت سنوات الحصار العجاف مؤشراً له إلى العودة إلى أزمات تاريخنا الإسلامي ليتساءل عن دوافعها ومظاهرها ونتائجها في تأمل فلسفي فريد، لأنه صادر أصلاً عن رجل سبر أغوار التاريخ، فيسجل:

«لقد عمّقت إقامتي في البيت تفكيري في الأسس الخفية لتطور

المجتمعات في التاريخ، وهو ما لم يحظ بالعناية التي يستحقها من الباحثين، لقد كان البيت مختبراً لتوضيح كثير من الأفكار والتوجهات. لقد بدأت تتوضح لي أفكار قديمة في التبدل الاجتماعي الذي تعرضت له المجتمعات الإسلامية، منها عوامل عدم استمرارية انحصار الثروات المادية والنشاط الفكري في أُسر معينة، وإنما تقلّد في كل حقبة مجموعة من الأفراد يبرز أفرادها في ثرواتهم أو دورهم الإداري والفكري». ويستنتج في موضع آخر:

«لقد وضّح لي هذا الأمر ظاهرة أنه في القرون الأولى من الإسلام، كانت تحدث كل خمسة وعشرين سنة حركة عارمة لا تستقر إلا باستعمال القوة، ليظهر مجتمع جديد، رغم استمرار مبادئ الاستقرار التي يدعو إليها الإسلام».

وفي خضم ذلك، حصل على اعتراف جديد بعبقريته بنيله جائزة سلطان العويس للدراسات الإنسانية والمستقبلية، وممّا جاء في قرار لجنة الحكام:

«إن الدكتور صالح أحمد العلي قد أسهم في وضع أسس مدرسة عربية جديدة في قراءة التاريخ الإسلامي، إذ نستطيع أن نستشف منهجه النقدي الموضوعي الذي اختاره لبحثه من خلال بعض كتبه التي أصدرها ومنها **الدولة في عهد الرسول**[٣] و**الخراج في العراق في العهود الإسلامية** و**بغداد مدينة السلام** و**دراسات في الإدارة عند العرب** و**تطور الحركة الفكرية في صدر الإسلام**».

وبالرغم من هذا الاعتراف بمكانته السامية في عالم البحث التاريخي العربي والمردود المادي الكبير، فإن ذلك لم يصرفه عن المضي في رسالته، أو يضعف من وتيرة عطائه. كان يدرك أن النهاية باتت قريبة، فأعاد نشر كتابه **محاضرات** تحت عنوان جديد هو **تاريخ العرب القديم والبعثة النبوية**، بعد أن أجرى قليلاً قلمه على النص السابق، منقّحاً وملطفاً. وأعاد نشر الكتاب المكمل **الدولة في عهد الرسول**. والمذهل لمن يطالع نسختي العلي الشخصيتين

(٣) صالح أحمد العلي، **الدولة في عهد الرسول** (بغداد: مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٩٨٨).

من هذين الكتابين، وقد وصلتا إلى يده من الناشر في أواخر أيامه، اكتظاظهما بالتعليقات والإضافات والاستدراكات بخط يده! ، وهو ما يؤكد أن فكره الوقّاد لم تضعف من فتوته صروف الزمن وعلل الجسد العاتية. أما الكتب الجديدة، فأهم كتاب دفعه للنشر ولم تكتحل عينيه برؤيته هو **الكوفة في صدر الإسلام**، هذا الجهد الذي عاش معه نحو نصف قرن من الزمن، وكان ينتظر نشره ليجعله نداً لمساهمته الأولى عن البصرة. وإلى جانب الكوفة، كانت هناك كتابات تجاوزت المناطق التي عني بها العلي طوال حياته، حيث أصدر **أهل الفسطاط**، و**سامراء**، و**عمر بن عبد العزيز**، وهو كتابه الوحيد الذي عنون باسم شخصية، حيث جمع في تناوله له بين اهتمامه الثابت بإصلاحاته الاقتصادية وسياسته الإدارية، والقلق من الآثار الاجتماعية الكارثية للأزمات الاقتصادية. كل ذلك قاده إلى ما كان ينشد البحث عنه طوال حياته؛ فبعد الأزمات الاقتصادية، يأتي الانهيار الاجتماعي، ثم تأتي القوة العسكرية لتحكم على المجتمع بالخراب، ثم يلجأ الناس إلى المنقذ الوحيد: **الله** الذي يعيد إحياء الأمل في النفوس.

لقد عاد العلي يتساءل مع نفسه السؤال الذي سأله اشبنكلر وتوينبي وإليوت وآخرون: ماذا بعد الخراب؟

بالنسبة إليه، كانت الإجابة واضحة: العودة إلى **الله**، ويقول بشأن ذلك:

«كل هذا أثار فيّ التفكير في دور الدين بتوفير الأمل والطمأنينة بوجود قوة جبارة هي «**الله**» تؤمنه، إن مع العسر يسراً، إن مع العسر يسراً، ودفعني هذا إلى زيادة الاهتمام بدراسة وتتبع أثر الدين في الاستقرار الاجتماعي الذي هو أساس الاستمرارية والاستقرار والبقاء».

اعترف العلي بأنه بعد إيغاله الطويل في متاهات التاريخ وعوالمه، توقف أمام العامل الديني وأثره في تطور الأمة وصمودها في وجه التحديات الداخلية والخارجية. وهو يرى أنه ليس بدعاً من المؤرخين؛ فقد سبقه إلى ذلك كولنغوود وتوينبي وأستاذه غب، وكل هؤلاء بدأوا حياتهم في تلمّس الآثار المادية في

التطور، وأنهوا حياتهم بأبحاث تُظهر أهمية الدين في التطور الحضاري.

لقد وصل إلى هدفه المنشود، **الله**، ليقول في تحليل بلغ به الأوج:

«يتجلى لديّ من استعراض الدول التي ظهرت في تاريخ البشرية أنها تباينت في سماتها المعبّرة عن اهتماماتها العامة ممّا نسميه حضارات بين أربعة أصناف هي العسكرية و التقنية والعلم والدين، وأن أياً من الأصناف الثلاثة الأولى لم يصمد أمام التحديات الداخلية أو الخارجية وحكم عليه بالفناء، بينما صمد الإسلام لهذه التحديات التي كان لبعضها من القوة والعنف ما أزال الحضارات، واستمر قائماً إلى ما شاء الله لأن الحضارة الإسلامية جعلت أساس دعوتها ومبادئها آيات القرآن الكريم وأفكار وأعمال الرسول (ﷺ) القائمة توجهاتها على ما جاء به القرآن، والتي تؤكد الاهتمام بالإنسان واحترام وجوده، وإصلاح ذاته، وإقامة علاقاته بأبناء مجتمعه على أسس أخلاقية تيسّر لسلامته وتؤمن طمأنينة أفراده واستقرارهم وديمومتهم. . .».

كانت هي الإجابة نفسها دائماً، وكما هي كائنة وكما ستكون إلى أن يرث الله الأرض وما عليها.

وهكذا قال العلي كلمته الأخيرة ورحل في أواخر عام ٢٠٠٣، لكن الأفكار التي رسختها كتاباته، والأمة التي دافع عنها، والدين الذي أبدع في وصفه مظاهره ستأبى أبداً الرحيل.

المراجع

جاسم، ناصر عبد الرزاق الملا. **المؤرخ صالح أحمد العلي: رحلة التأسيس لمنهج أكاديمي لدراسة التاريخ العربي**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠١٠.

العلي، صالح أحمد. **سيرة وذكريات** (مخطوط يتضمّن سيرة العلي الشخصية بخطّ يده).

المطبعي، حميد. **الدكتور صالح العلي**. بغداد: بيت الحكمة، ١٩٩٦.